طبيعتا يسوع المسيح

للاب ارمند اودين

احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس (الناصرة)*

« يحبّني الآب ، لاني ابذل نفسي لآخذها ايضاً ، ليس احد يأخذها مني ، ولكني ابذلها باختياري ، ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً » (يو ١٠ : ١٧-١٨)

من ذا الذي جاز له ان يفوه بهذا الكلام المستغرب ؟ واستطاع ان يبذل نفسه فيذوق الموت كسائر البشر ؟ غير ان يد المنون ، لو لم يقدم ذاته لها طوعاً ، لما استطاعت ان تصل اليه . اذاً مات بارادته . . . الا انه كان حائزاً على السلطان ليحيي نفسه ثانيةً . يدلنا كلام المسيح هذا ، على سرّ يفوق ادراك عقلنا الضعيف . ولهذا السرّ يسجد كل مسيحي ، معترفاً بان فادي العالم يسوع المسيح ، جمع حقاً في شخصه ، هاتين الحالتين ، اي انه من جهة تألم ومات كفارةً عن ذنوب البشر ، ومن جهة اخرى تصرف في الحياة والموت كربّ ، ولم يمت الا باختياره . وبعد ان مات قام بقدرة ذاته . فهكذا نراه مشابهاً بالشكل الذي ظهر فيه لاعين الناس ، ومرتفعاً فوقنا بتلك القوة العجيبة التي لم يفقده اياها الموت عينه ، بل بها ردَّ الحياة لجسده المضجع في القبر .

فكيف يلزمنا ان نفهم هذا السرّ الغامض دون ان ننكر شيئاً مما يعلّمناه الكتاب المقدس عن يسوع المسيح مخلصنا ، والوسيط بين الله والبشر ؟ هذا هو السؤال الذي لا يتفق جميع النصارى في الجواب عليه . فان اغلبهم يعتقدون ان قد اتحدت الطبيعتان في يسوع المسيح : اي الالهية والبشرية ، وان هذا الاتحاد هو الذي تعنيه بقولنا : « ان الكلمة صار جسداً » ، وان كل واحدة من الطبيعتين ثبتت في حقيقتها ، وحافظت على صفاتها الخاصة ، ولم تخسر

*) عني بتصحيح عبارته ونشره الخوري اسطفان فرحات اللبناني .

شيئاً من كمالها . غير ان بعض النصارى الشرقيين رفضوا ذلك التعليم وذهبوا مذهب الطبيعة الواحدة ، زاعمين ان سرّ التجسد تمّ ، لا باقتران الطبيعتين في اقنوم واحد ، بل باختلاطهما ، او بتحوّلها الى طبيعة ثالثة ليست الهية ولا بشرية ، او بفناء الطبيعة الانسانية ، كأن اللاهوت ابتلعها او حوّلها اليه .

ولذلك كان مقصدنا بهذا المقال — ايها القارئ الكريم — تنوير عقلك في هذه المسألة المهمة ، وان نبيّن لك ان الوحي الالهي والعقل السليم يتوافقان على رذل مذهب الطبيعة الواحدة ، فنورد لك اذاً ، اولاً ، من نصوص الآباء القديسين ، ما يتمثّل فيه التقليد الشريف الذي اخذته الكنيسة من الرسل معلّميها الاولين ، ثم نوضح لك ان الكتاب المقدس يعلمنا ايضاً تمايز الطبيعتين في يسوع المسيح . وبعد ذلك نفند ما استند اليه من الحجج بعض المدافعين عن مذهب الطبيعة الواحدة ، ونبين لك اخيراً ان هذا المذهب يلاشي حقيقة التجسد ، وان العقل المستقيم يردّه لا محالة .

١ شهادات آباء الكنيسة

قال القديس اغناطيوس اسقف انطاكية : « ان طبيعتنا هو واحد ، وهو جسديّ وروحيّ ، مخلوق وغير مخلوق ، اله في انسان ، من مريم ومن الله . »

وكتب القديس غريغوريوس النزينزي في احدى قصائده : « أتى مَن هو اله وانسان جامعاً طبيعتين متحدتين ، احداهما محتجبة ، والاخرى ظاهرة للناس . »

وعبّر القديس غريغوريوس النيصي عن معتقده هكذا : « تعلمنا ونعتقد ان الطبيعة الانسانية المتحدة بالكلمة هي محفوظة . »

وجميل ما قاله القديس يوحنا فم الذهب في تفسير آية يوحنا هذه : « فالكلمة صار جسداً » قال : « انه صار ابن البشر ، مع انه كان ابن الله الحق ، ولم ينقص طبيعته بانحداره هذا . لانه ليس الجوهر انحطّ الى الجسد — وان هذا الزعم لنفاق — ولكن مع استمراره ، كما كان ، اخذ شكل العبد . فمراد الانجيلي بقوله « صار » لا يعني تغير جوهر ، حاشا ان نقول ذلك ، بل ان يصرّح بحقيقة الجسد المأخوذ ، فان الكلمة الالهي والجسد هما واحد بلا اختلاط ، ومن

غير زوال الجوهرين ، بل باتحاد يفوق الوصف »

وقال القديس افرام : « ان للمسيح طبيعتين كاملتين ، لئلا تفنى الطبيعتان ، فان الله لم يظهر على الارض في احدى الطبيعتين فقط ، ولا في الاخرى وحدها صعد الانسان الى السماوات ، بل كان كاملاً من كامل ، وانساناً من انسان ، والهاً من اله ، وهو المسيح ابن العذراء . »

هذه البيّنات كانت لما كان تقليد الكنائس الشرقية ، قبل ان يقوم الجدال في مسألة الطبيعتين ، وكذلك كان في الزمان عينه تعليم الآباء الغربيين ، فحسبك ان تسمع منهم كلام القديس اوغسطين اذ قال : « اخذت صورة الله صورة العبد ولكن لم تتحوّل بذلك احدى الصورتين الى الاخرى ، فان اللاهوت لم يصر خليقة بحيث لم يعد لاهوتاً ، ولم تُضحِ الخليقة لاهوتاً بحيث لم تعد خليقة . »

لكن عندما ابتدأ الخلاف بين اتباع اوطيخا وخصومهم ، كتب القديس لاون البابا رسالته المشهورة التي وجّهها الى فلابيانوس اسقف القسطنطينية ، واعلن فيها معتقد الكنيسة عن طبيعتي المسيح ، ودونك كلماته : « ان الذي هو اله حق انما هو ايضاً انسان حق ، وما من كذب البتة في هذه الوحدة التي اقترن بها وضاعة البشر وسمو اللاهوت ، لانه كما لا يتغيّر الله بتحننه ، كذلك لم يفنَ الانسان بارتفاعه ، ولكل واحدة من الصورتين ما يلائمها من الافعال مع اقترانها بالصورة الاخرى ، فان الكلمة يعمل ما يختصّ بالكلمة ، ويجري الجسد ما يناسب الجسد ، ولمع احدهما بالاعاجيب ، ويخضع الآخر لثقل الاهانات ، وكما لم ينحطّ الكلمة عن مساواة مجد الاب ، كذلك لم يتجرّد الجسد عن طبع جنسنا . »

ويفيد ان نختم سلسلة تلك الشهادات بايراد الكلمات التي حكم بها آباء المجمع الخلقيدوني في مسألة الطبيعتين ، قالوا : « اننا طبقاً لاقوال الآباء القديسين نعلّم اجمعين ، وبتمام الاتفاق ، ان ابن الله وسيدنا يسوع المسيح هو واحد بذاته ، وكامل في اللاهوت وفي الناسوت ، وانه اله حق وانسان حق ، مركب من نفس ناطقة وجسد ، وانه باللاهوت واحد الجوهر مع الاب ، وبالناسوت واحد

الجوهر معنا ، ومشابهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ، وباللاهوت ولده الاب منذ الازل ، واما بالناسوت فولدته مريم البتول والدة الله في آخر الايام لاجلنا ولخلاصنا . فنعلم وجوب الاعتراف بالمسيح الرب والابن الوحيد ، الواحد بذاته في طبيعتين بغير اختلاط ، ولا تغير ، وبدون انقسام ولا انفصال ، ودون ان ينفي الاتحاد اختلاف الطبيعتين من اي وجه كان ، بل مع المحافظة على حقيقة كل واحدة منهما.»

٢ شهادة الكتاب المقدس

قد ظهر لك ، ايها القارئ الكريم ، مما مرَّ بك ان مذهب الطبيعة الواحدة في يسوع المسيح يخالف تعليم الآباء القديسين ، وكأنهم دحضوه سابقاً ، وان الكنيسة رذلته وشجبته بصوت رئيسها القديس لاون ، وباصوات الاساقفة الملتئمين في خلقيدونية. افلا تكفيك هاتان الحجتان ، لتحسب هذا المذهب بدعةً من البدع التي يجب رفضها على كل مؤمن ؟ فاذا نقول اذا بيّنّا لك ان المذهب عينه يناقض تعليم الاسفار الالهية ؟ ولا يصعب هذا التبيان ، لان كتب العهد الجديد تعلمنا صريحاً : ان مخلص البشر هو اله وانسان معاً ، ولا حاجة هنا الى ايراد النصوص العديدة التي تتضمّن تأكيد كلتا هاتين الحقيقتين ، ولا الى ذكر الشيع القديمة التي قامت عليها ، فبادرت الكنيسة الى رميها بالحرم . ولكن كيف يصح القول : ان يسوع المسيح هو اله وانسان ، ان لم تكن فيه كلتا الطبيعتين الالهية والبشرية ؟ على انك لا تطلق اسماً على شيء ، ما لم ترَ في هذا ، الطبيعة التي يعنيها الاسم ، هكذا لا تسمي حجراً سوى ما ظهر فيه لك طبع الحجر ، ولا تدعو فرساً سوى ما تحكم بان فيه طبيعة الفرس ، ولا تقول ان فلاناً هو انسان الا دلالةً على ان فيه ما تقوم به ماهية الانسان.

فواضح اذن ان يسوع المسيح ، لو لم تكن فيه الطبيعة البشرية ، لكذب الكتاب كلما دعاه انساناً . وكذلك لو لم تكن له الطبيعة الالهية ، لما جاز ان يسمّى الهاً . ولهذا نقول ان الكتاب المقدس يعلمنا وجود الطبيعتين في ابن الله المتجسد.

٣ رد الاعتراضات

ماذا قال الذين حاولوا الدفاع عن مذهب الطبيعة الواحدة ؟ انه مما اعترضوا به ان اتحاد الكلمة بالناسوت في يسوع المسيح يشابه اتحاد النفس والجسد في الانسان.

والحال ان الانسان ، المركب من نفس وجسد، له طبيعة واحدة فقط ، فكذلك تكون لابن الله المتأنس طبيعة واحدة لا غير.

وزادوا على ذلك انه من العبارات التي استعملها الآباء القديسون ان اللاهوت والناسوت امتزجا فصارا لا يتمايزان الا بنظر عقلنا.

فاذاً ليس للمسيح طبيعتان تتمايزان حقيقة.

وايضاً تكلم القديس كيرلس مراراً عديدة عن طبيعة ابن الله الواحدة المتأنسة ، فاعتقد اذن هذا العلامة الشهير ان المسيح ليست له طبيعتان.

فترى من ذلك ان ما اتخذه خصومنا سنداً لمذهبهم يقوم كله ببعض ما ورد في كتب الآباء القديسين من الالفاظ التي ظنوا انها تدل على انكار الطبيعتين او خلطها . وعليه فاذا فسرنا تلك الالفاظ كلها تفسيراً مقبولاً ومتفقاً مع العقيدة الكاثوليكية سلبنا بالفعل عينه خصومنا كل سلاح يستخدمونه للهجوم على قضية الطبيعتين.

فلنعتبر اولاً : بأي معنى قيل ان اتحاد اللاهوت والناسوت في يسوع المسيح يشبه اقتران النفس والجسد في الانسان . ولاحظ — يا هداك الله — ان النفس والجسد فينا لا يختلطان ، ولا يفنى احدهما ، بل يثبت كل واحد منهما محافظاً على خواصه. فمن هذه الجهة لا نجد في هذا التشبيه شيئاً يتفق مع رأي اوطيخا ، غير ان طبيعة الانسان هي واحدة مع تمايز النفس والجسد ، لان الجزئين ليسا بجوهرين كاملين ، بل كل منهما هو متوجه بطبعه الى الاقتران بالآخر ، فلا غرو اذن ان الجوهر المركب منهما هو واحد الطبيعة ، كما ان اعضاء الجسد مع كثرتها وتنوعها لا يقوم بها الا جسد واحد ، لكون كل منها شيئاً ناقصاً يقتضي الانضمام الى غيره ، لتكون له افعال الحياة.

اما اللاهوت والناسوت اللذان نعترف بوجودهما في اقنوم المسيح ، فيستحيل ان نتصورهما كشيئين ناقصين . وهذا واضح جدًا من جهة اللاهوت ، الذي هو الكمال غير المتناهي . والامر اكيد ايضاً من جهة الناسوت لان قولنا : ان يسوع المسيح هو انسان حق يستلزم حصوله على الطبيعة البشرية الكاملة . فاذًا ما من سبيل الى تصوّر طبيعة واحدة تحصل من اتحاد اللاهوت والناسوت ، وليس هذا ما اراده الذين استعملوا تشبيه اتحاد النفس والجسد . لكنهم اعتبروا ان الانسان هو شخص واحد مع تألفه من جزئين يفوق احدهما الآخر ، بما لا قياس له ، كذلك يسوع المسيح هو اقنوم واحد ، مع تمايز طبيعتيه ، واحداهما هي اشرف من الاخرى بما لا حدّ له ، وكما يظهر جسد الانسان وتحتجب نفسه ، كذلك نرى ناسوت المسيح لانظار الناس بينما كان لاهوته مستترًا عنهم .

فلننتقل الآن الى الاعتراض الثاني المأخوذ من قول بعض الآباء : ان اللاهوت والناسوت في المسيح امتزجا واصبحا لا يتميزان الا باعتبار عقلنا . فهل يسوغ لنا فهم هذه الكلمات وما شابهها بمعنى ينافي ما قاله صريحاً الاباء انفسهم من ان طبيعتي المسيح بقيتا غير متغيرتين ، ولم يبد شيء من خواصها ؟ كلّا ، فان الصواب يقضي بان نؤوّل مبهم كلامهم وفقاً لجليه . فنقول اذن : انهم ارادوا بالامتزاج الاتحاد الوثيق الذي يقوم به شيء لا يقبل الانقسام ، مع ثبات كل واحد من المتزجين . كما اذا مزجت ماء وخمرًا ، مما ظاهر للعين ان السائلين اضحيا واحدًا فلا ريب ان كل واحد منهما بقي محافظاً على طبعه وصفاته . كذلك حينما يمزج الصائغ ذهباً ونحاساً ، نعم ان المعدنين يذوبان معاً ويصيران قطعة واحدة ، فلا تعود تقدر على تمييز الاجزاء المختصة بكل منهما ، غير ان صاحب علم الطبيعيات يوقن ان هذه الاجزاء لم تزل على ما كانت عليه قبل المزج ، ولم تفقد شيئاً من طبع الذهب والنحاس . فلتعلك هذه التشابيه ، مهما كانت ناقصة ، لتدرك ان الاباء الذين تكلموا عن امتزاج الطبيعتين في شخص المسيح ، لم يريدوا قط انكار حقيقتهما وتمايزهما . بل عبروا بهذه اللفظة عن الاتحاد الشديد والدائم الذي يقوم به اقنوم واحد . اما اللاهوتيون الذين عاشوا من زمان المجمع

الخلقيدوني الى يومنا هذا ، فلما اعتبروا ما في لفظة امتزاج من خطر سوء الفهم ، اعتادوا الامتناع عن استعمالها . وآثروا الاكتفاء بالقول ان الطبيعتين اتحدتا واقترنتا .

وقل مثل ذلك عن عبارة القديس كيرلس اي « طبيعة الكلمة الواحدة المتأنسة » فان الذين استدلوا منها على ان القديس كيرلس انكر تمايز الطبيعتين في المسيح غلطوا جداً ، وفاتهم ما كتبه العلّامة نفسه تصريحاً بمعتقده : « لا يجوز تقسيم يسوع المسيح الرب الواحد الى انسان على حدة ، والـه على حدة ، بل نقول : ان يسوع المسيح هو واحد بعينه ، ولا نجهل ما من الفرق بين الطبيعتين . بل نحافظ عليهما بغير اختلاط . » وقال ايضاً في احدى رسائله : « لم تتحوّل طبيعة الكلمة الى طبيعة الجسد ، ولا طبيعة الجسد الى طبيعة الكلمة ، بل ثبتت كل واحدة منهما في حقيقتها . »

فبيّن من اقوال كيرلس هذه ، ومن غيرها ، ان مراده بالطبيعة الواحدة المتأنسة ، هو لاهوت الكلمة ، الذي تأنس اي اتحد بالناسوت في اقنوم واحد . ولم ينفِ التمييز بين الطبيعتين ، بل انكر ان في المسيح اقنومين او طبيعتين تقوم كل واحدة منهما بذاتها ، كما زعم اتباع نسطور ، وبهذا المعنى ليس من خلاف بين كلمات كيرلس هذه ، وسائر تعاليمه ، وتعليم جميع الآباء والاساقفة الكاثوليك . ولذلك رمى المجمع الخامس بالحرم « من يقول ان طبيعة الكلمة الاله المتجسد هي واحدة ، ولا يفهم هذه اللفظات طبقاً لتعليم الآباء القديسين ، يعني ان الطبيعتين الالهية والانسانية اتحدتا بالاقنوم اتحاداً حصل به مسيح واحد ، بل بهذه الكلمات يحاول ابداع طبع او جوهر واحد ، حاصل من لاهوت المسيح وجسده . »

٤ حكم العقل السقيم

ويفيد ايضاً ان نمعن النظر في ما يتضمنه مذهب الطبيعة الواحدة من المنافاة لحقيقة سر التجسد ، ولمطالب العقل السليم ، فان كل قائل ان في المسيح طبيعة واحدة فقط يجوز ان نستفهم منه هكذا : هل تركبت هذه الطبيعة من

اللاهوت والناسوت تركبا من جزئين ؟ ام حصلت بتحولهما الى طبع واحد ؟ فاذا اجاب باول الامرين ، ساغ لنا ان نقول له : اذاً تتصور اللاهوت والناسوت كشيئين ناقصين ، بحيث يمكن ان يقترنا تأليف شيء ثالث يكون منهما بمثابة الكل من اجزائه ، ولا يخفى ان الكل هو دائماً اكمل واكبر من جزئه . فيكون على رأيك شيء اكمل واشرف من اللاهوت ، وهو الطبع الثالث المركب من اللاهوت والناسوت . وهذا ضلال مبين بل تجديف فظيع ، فانه تعالى كامل في الغاية ، ومحال ان يقدر شيء يفوقه كمالاً .

اما اذا جاوب بالامر الثاني ، فنقول له : كيف تزعم ان الطبيعة الالهية تحولت الى غيرها ؟ هل تتصورها قابلة التغير ؟؟ وهل يخفى عليك ان ما يتحول طبعه الى غيره ، فانه بالفعل عينه يفنى ويزول ؟؟ كما تفنى الخمر حين تحولها الى خل ، ويزول الحطب اذا تحول الى رماد . فما بالك تعزو اليه تعالى ما يجعله متغيراً وفانياً ، واي اثر للصواب والتقوى في مثل هذه الاوهام ؟

اما القائل ان طبيعة المسيح الواحدة حصلت بفناء الناسوت ، كما يفنى الشيء الصغير في الكبير ، وقطرة الماء في اليم العظيم ، فنجيبه بان رأيه هذا يلاشي جلياً كل حقيقة التجسد . لان هذه تستلزم صحة قولنا ان الكلمة اخذ الطبيعة البشرية فصار انساناً حقاً . وكيف اخذ الطبيعة التي قد فنيت ، اي صارت غير موجودة ؟ او قل بالحري انها لم توجد قط ، لان ناسوت المسيح لم يكن له وجود قبل آن التجسد ، فيعود اذن هذا الرأي الى مذهب الذين انكروا كل حقيقة التجسد . وزعموا ان جسد المسيح كان خيالياً ، ولا يخفى ان ضلالهم هذا يقوض أس الدين المسيحي نفسها .

ولا يسلم من هذه النتيجة الوخيمة مذهب الطبيعة الواحدة ، بأي طريقة حُوّل تفسيره والدفاع عنه . لان سرّ الفداء عقيدة اساسية في ديننا المقدس ، ومن نفى عن يسوع المسيح تمايز الطبيعتين نقض بالفعل عينه حقيقة الفداء . فان هذه تحتوي على امرين : اي تضحية المخلص بذاته ، وكفاية هذه التضحية للتكفير عن خطايا العالم باسره . وقام اول هذين الامرين بشيئين .

اولهما : رضى يسوع بتسليم ذاته لاسباب العذاب والموت ، اطاعة

لارادة الله .

وثانيها : احتماله تأثير تلك الاسباب في جسده ونفسه .

وهل كان ممكناً شيء من ذلك ، لو لم يكن للمسيح ارادة بشرية خاضعة لمشيئة الله ؟ وجسد ونفس قابلان التألم والموت ؟ اي لو لم يكن له طبيعة بشرية حقيقية .

اما كفاية ذبيحته للكفارة عن جميع مآثم العالم ، فقد اقتضت كون اقنومه الهياً ، اي حصوله على الطبيعة الالهية . فترى اذن ان من انكر وجود الطبيعتين في يسوع المسيح نقض بذلك سر الفداء .

فحسبك هذه البينات — ايها القارئ الكريم — لتدرك ما يختفي من السم القتّال ، والكفر الشنيع في مذهب الطبيعة الواحدة .

فلنعترفنَّ اذن ، من دون خلجة شك ، بحقيقة الطبيعتين اللتين اتحدتا في اقنوم مخلصنا يسوع المسيح . ولنشكره على انه تنازل واخذ طبيعتنا ، لكي ينهض آدم وذريته ، وينصرهم على الشيطان الذي كان قد صرعهم ، ولنوطد رجاءنا باعتقادنا ان ابن الله ليس طبيعتنا ينجيها من كل ما اصابها من انواع الشقاء ويشركها في مجده الابدي .

فليشجعنا هذا الامل على اقتفاء آثار المسيح ، لمعرفتنا انه عاش في منفانا هذا عيشة بشرية ، بجسد كجسدنا ، مباشراً من الاعمال ما يجب علينا مباشرته . ومشابهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة . حتى اذا اجتنينا هذه الثمار النفيسة من ايماننا بطبيعتي مخلصنا الالهي نستحق معاينته في بهاء ملكوته الابدي .